

### **الغاية من الالتزام بالسلوك الأخلاقي**

**الدكتور محمد عبد الله دراز قدم رسالته الدكتوراه بعنوان دستور الأخلاق في القرآن. والرسالة كلها هي:**

**النظرية الأخلاقية في القرآن مقارنة بالنظريات الأخرى. يقول تحت عنوان:**

#### **الإلزام<sup>(١)</sup>**

**(يستند أي مذهب أخلاقي على فكرة الإلزام، فهو القاعدة الأساسية والمدار الذي يدور حوله كل نظام أخلاقي، ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام، فلن تكون هناك مسؤولية، وإذا عدت المسؤولية فلا يمكن أن تعود العدالة، وحينئذ تعم الفوضى، ويفسد النظام، وكيف نتصور قاعدة أخلاقية بدون إلزام.**

**ولقد أحسن الفيلسوف (كانت) صنعا حين كشف عن مصدر الإلزام الأخلاقي في تلك الملكة العليا في النفس الإنسانية التي توجه مستقلة عن الشهوة وعن العالم الخارجي معا.**

---

<sup>(١)</sup> دستور الأخلاق في القرآن. النظرية الأخلاقية مقارنة بالنظريات الأخرى. د. محمد عبد الله دراز ص ٢٢....

ونظرة (كانت) هذه، لا تعد من المسلمات فحسب، بل إنها لتتفق تماماً فيما نرى مع النظرية المستخلصة من القرآن.

مصدر الإلزام الأخلاقي القوة الباطنة، وهي لا تقتصر على نصحه وهدايته وحسب، بل إنها توجه إليه أوامر بأن يفعل أو، لا يفعل، فنحن عندما نقصر في واجباتنا نحس أننا قد هبطنا إلى مستوى غير خليق بنا، ونعترف ضمناً بأننا مخلوق نبيل قد زل، ولا يزال القرآن يوقظ فينا هذا الشعور بكرامتنا الأصلية)

(فالمسؤولية إذاً، صفة يستمدها الإنسان من فطرته قبل أن يتلقاها من الخارج)<sup>(١)</sup>

أقول: إن فكرة الإلزام والالتزام، ظهرت أول ما ظهرت في المعسكر الشيوعي، وهي فكرة تصب في الأدب الشيوعي، فكل أديب يعبر عن العقيدة الشيوعية تعبيراً نابعاً من إيمانه بها، وقد اندفعت طبقة البروليتاريا- الطبقة الكادحة رافعة صوتها معبرة عن التزامها بهذا المبدأ.

بقيت الطبقات غير الشيوعية فماذا تفعل تجاه الشيوعية التي لا تؤمن بها، وقد سيطرت على مقدرات الحكم في

(١) الأخلاق في الإسلام د. إيمان عبد المؤمن سعد الدين ص ١٢٣.

البلاد؟ لقد ألزمتهم الشيوعية على أن يعبر عنها بفنهم الأدبي و سائر الفنون الجميلة كالتصوير والنحت والرسم والأدب والشعر، وقد رأى خروتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي السابق صورة في معرض لرسام شيوعي لم يدع في هذه الرسمة إلى الفن الشيوعي فقال:

(من هذا الحمار الذي رسم هذه الرسمة؟)

فالإلزام غيرالالتزام، الإلزام: أمر يرد على النفس من خارجها وهو أمر فيه إكراه.

أما الالتزام: فهو أمر ينبع من داخل النفس، وهو أمر محبب للإنسان الذي يلتزم أخلاقياً بما يراه مناسباً.

أما مصطلح (المسؤولية الأخلاقية) فإن الدكتور مقداد يلجن يجعله رديفاً للالتزام، وهو يحدد معناه، بما يلي<sup>(١)</sup>:

(أن يتحمل الشخص نتيجة اختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله في الدرجة الأولى، وأما ضميره بالدرجة الثانية وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة)

### **غاية الأخلاق:**

---

(١) في كتابه علم الأخلاق الإسلامية ط ٢ ص ٢٥٢

ويعقد الدكتور مقدار فصلاً لهذا الموضوع يتساءل فيه<sup>(١)</sup>؛

(إذا كانت للأخلاق غاية، فما هذه الغاية؟ إنها السعادة.

ولكن ما حقيقة السعادة؟

لقد اختلف الدارسون في تحديد السعادة من حيث ماهيتها، والطريق المؤدي إليها، وسنقتصر القول على الاتجاهات الآتية.

**أ. الاتجاه الروحي؛**

يرى هذا الاتجاه أن الروح حقيقة الإنسان وجوهره، وأما الجسم؛ فما هو إلا أداة تستعملها الروح، ولهذا، فإن حقيقة سعادة الإنسان سعادة روحية، وهي لا تتم إلا بالاهتمام بها، وتحقيق متطلباتها وتطهيرها وتزكيتها من العلائق المادية والنوازع الشريرة، وبذلك تصبح مالكة الجسم تسييره حسب مشيئتها وتحرر من قيود الجسم وأغلاله ومتطلباته، ولذلك لا ينبغي الاهتمام بالجسم لأن الاهتمام به يقوي النوازع المادية فتتسلط المادة على الروح فتشفى.

(١) علم الأخلاق الإسلامية د. مقدار يلجن ص ٥٨.

ومن جهة أخرى فإن الروح هي الحقيقة الباقية بعد فناء الجسد، فالاهتمام بها يعد اهتماماً بالسعادة الحقيقية الدائمة في عالم الخلود.

وهناك اتجاه روحي آخر في فلسفة الهند البrahمة، وخاصة البوذية التي تطورت من البراهمة على يد واحد من زهادهم، ترى هذه الفلسفة، أن السعادة الكاملة تتم عن طريق التخلص من هذه الحياة، التي هي مصدر الآلام والأحزان والشقاء والكآبة والتعاسة، والانتقال إلى عالم الإله أو، إفناء الذات في الله، أو الالتحاق بعالم النرفانا والسبيل إليه هو محاربة الأهواء والرغبات المادية وترك اللذائذ والمتع الدنيوية وتجنب الرذائل والآثام والقبائح مثل الكذب وشهادة الزور والزنى وإراقة الدماء وقتل البقر بصفة خاصة ثم التحلي بالفضائل مثل الجود والعفو والاستقامة والطهارة والصدق وعبادة الله.

وإن الانتقال من دار الشقاء إلى دار السعادة يتم عن طريق التناسخ، وهو من أهم مبادئ هذه الفلسفة.

**ب- الاتجاه العقلي:**

ويرى هذا الاتجاه أن السعادة هي الشعور الغالب بالسرور الدائم في جميع الظروف، وهذا الشعور يأتي نتيجة إخضاع السلوك لحكم العقل، واتباع قوانينه والتمسك بالفضائل التي يأمر بها، وقد ذهب إلى هذا الاتجاه، أرسطو والرواقيون في العصور القديمة، وديكارت وكانت في العصور الحديثة.

فالسعادة الحقيقية عند أرسطو تحصل نتيجة الحصول على جميع الخيرات التامة، فهو بذلك يجمع بين الخيرات الخارجية الحسية من المال والنعمة الأخرى، والخيرات الداخلية النفسية من الحكمة والمعرفة والفضيلة، إلا أنه يفضل الخيرات العقلية والنفسية على الخيرات الخارجية، أي أنه يرجح الخيرات المعنوية على الخيرات المادية.

وقد تبني أحمد بن مسكويه رأي أرسطو في السعادة، وذهب الفارابي إلى قريب من هذا الاتجاه إذ عرف السعادة بأنها (اتجاه عقل الإنسان مع العقل الفعال) ويكون ذلك عن طريق التحلي بالفضائل الأخلاقية والابتعاد عن الشرور والردائل.

### **ج- الاتجاه المادي**

يرى أصحاب هذا الاتجاه، أن السعادة هي التي يشعر بها الإنسان نتيجة إشباع دوافعه الطبيعية وغرائزه الحسية. وقد تطور هذا الاتجاه وأخذ صوراً مختلفة على هيئة مذاهب خاصة، منها مذهب القورينائية أتباع (أرسطوس) تلميذ سقراط، وقد فسروا السعادة التي نشدها سقراط باللذة الحسية، واهتموا باللذات العاجلة بدلاً من الآجلة، ونشدوا إشباع الدوافع في حينها وأوصوا بعدم تأخيرها لأنه يؤدي إلى الشعور بالحرمان والكآبة، وهذا شقاء نفسي وبهذا يجب المسارعة في طلب اللذات ولا حياء ولا خجل في طلب اللذات في أي صورة كانت.

ومنها مذهب الأبيقورية أتباع أبيقور.

ومنها مذهب المنفعة التطوري الذي يمثله هيربرت سبنسر، ولسلي ستيفن، ويرى هذا المذهب أن الحياة السعيدة تكون في التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع.

## **ثانياً:**

اتجاه الإسلام في غاية الأخلاق:

وتكمن حقيقة السعادة في هذه الحياة بالإحساس الدائم للمرء بالبهجة بخيرية الذات، وخيرية الحياة، وخيرية المصير.

تكمُن خيرية الذات في صحة العقيدة.

وخيرية الحياة في السلامة من الأمراض.

**أما العنصر الثالث،** فإن تحقيقه يتوقف على تحقيق العنصرين السابقين).

أما الشيخ عبد الرحمن حبنكه فقد كتب تحت عنوان:

الغاية من السلوك الأخلاقي<sup>(١)</sup>

(لدى دراستنا النصوص الإسلامية، والتدبر في المفاهيم العامة المقتبسة منها، نلاحظ أن الغاية من التزام فضائل الأخلاق، والابتعاد عن رذائلها تنقسم إلى عنصرين: العنصر الأول: اكتساب مرضاة الله تعالى.

العنصر الثاني: تحقيق أقساط من السعادة المستطاعة التحقيق في ظروف الحياة الدنيا).

وتوافق الدكتورة إيمان الشيخ حبنكة فتقول تحت عنوان:

الغاية من السلوك الأخلاقي ما يلي<sup>(٢)</sup>:

---

(١) الثقافة الإسلامية عبد الرحمن حبنكه ومحمد الغزالي ص ١٩٣.

(٢) الأخلاق في الإسلام د. إيمان عبد المؤمن سعد الدين ص ٤٢.

١) اكتساب مرضاة الله تعالى، وابتغاء ثوابه في كل عمل وفي كل حركة وسكون.

٢. تحقيق أقساط من السعادة المستطاعة التحقيق في ظروف الحياة الدنيا).

وما أكثر المذاهب الفلسفية بحثاً عن السعادة التي هي غاية السلوك الأخلاقي.

إن موضوع السعادة ؛ من الموضوعات الإنسانية الكبرى، وقد رأينا فلاسفة منذ سقراط وأرسطو وأفلاطون يبحثون عنها، إلى العصر الحديث، فلاسفة مسلمون وغير مسلمين، غاية الأخلاق السعادة. نعم. ولكن السؤال: أين تكمن السعادة؟ أين تجدها؟...

قزم يظن السعادة في العملة

وعائل يظن السعادة في الغنى

ودميم يظن أن السعادة في الجمال

ووضيع يظن أن السعادة في الجاه

وآخر يظن السعادة في الجنس أو في كأس...

أما الشاعر المسلم فأين وجد السعادة ؟

يجيب عن هذا السؤال الشاعر الدكتور عدنان علي  
النحوي في قصيدته التالي:

مع الهجير<sup>(١)</sup>

وتواثبت صور الدلال	حن الجمال إلى الجمال
ي على المروج على التلال	رباه! كم درجت خطا
ن وربوة وندى الطلال	ولكم هُرعت إلى الجنا
ر أغيب في برد الظلال	ولكم هربت من الهجيد
ول همستي وصدى خيالي	ولممت من بين الجدا
زهر الجواهر واللاللي	وجمعت من بين الحصى
ر هجعت في فيء الدوالي	وقطفت من حلو الثما
ل وبين زاهرة التلال	وركضت أمعن في الحقو
بقت الخطا قمم الجبال	ونزلت وديانا وسا
لامي تلفت بالسؤال	أجري وأوهامي وأحد
شوقا إلى دنيا الجمال	وأظل ألهث خلفها

(١) من ديوانه: جراح على الدرب

دنيا الحقيقة من يفتح  
وأمد من كفي<sup>س</sup> أب  
وأمزق الدرب الطوي  
وأسير والأيام تر  
وتغيب أشباح وتط  
وتفر أحلامي وتف<sup>س</sup>  
وأكاد أمسك بالطيو  
يا حسرتاه فكم جريد  
وأصب من عرقي وأد  
كم قيل لي دنيا الحقيقة  
ومع الجنان مع الورو  
ومع الرغاب الماجنا  
ونظرت في كفي<sup>س</sup> فا  
وأكاد أجمعها فولد  
قد لوثوا طهر الجما  
داسوا على حلو الورو  
سحقوا الأزاهير التي  
ها مضمخة الجلال  
حث عن رؤى بين الليالي  
ل خطأ مشتتة الأمالي  
كض والمنى تجري حيالي  
وى بين أجزاني الليالي  
لت من يدي تلك اللآلي  
ف فتختفي وأرى حيالي  
ت وراء كاذبة النوال  
فع لهفتي بخطى عجال  
ة في المروج مع الظلال  
د مع الشواهد والعوالي  
ت مع الهوى واهأ لحالي  
رغتين والدنيا حيالي  
ت كالتيوف إلى زوال  
ل وروعوا خضر الغزال  
دعلى الجنان على اللآلي  
رويتها بدمي ومالي

سرقوا الجواهر والكنو  
جفت فروعك يا جينا  
وتساقطت دنيا الخريف  
وكأنها وهم السرا  
ورجعت في حمى الهجيد  
ويكاد يقتلني الظما  
قدماي ترتجفان منهك  
وتكاد تغلبني الشكا  
ورميت يا رباہ آ  
وتركت خلفي كل أحد  
وتركت أوهام السرا  
ورجعت أبحث في الحقي  
فوجدتها في النفس في الأ  
في رفة الإيمان في الأنـ

زوكل حالية وغالي  
ن وأجدبت خضر التلال على  
التراب على الرمال  
ب كأنها ومض الخيال  
روبين أطياف وجمال  
وتكاد تطرحني رحالي  
تين من طول ارتحالي  
ة من الضياع من الملل  
مالي على وهن الكلال  
لامي وأشباح الضلال  
ب ركام أيامي الخوالي  
قة في الطهارة في الجمال  
عماق في شرف الفعال  
داء في عقبى مآل

## تدريبات

١. ما تعريف الإلزام؟ وما تعريف الالتزام؟ وما الفرق بينهما؟
٢. ما مصدر الإلزام الأخلاقي؟
٣. كيف حدد الدكتور مقدار يلجن المسؤولية الأخلاقية؟
٤. عدد الاتجاهات التي بحثت في حقيقة السعادة.
٥. ثلاثة مشاعر للإحساس بالسعادة فما هي؟
٦. على أي شيء يتوقف تحقيق خيرية الذات؟
٧. وخيرية الحياة؟
٨. وخيرية المصير؟
٩. ما غاية الأخلاق في نظر الشيخ حبنكة؟
١٠. أين وجد الشاعر المسلم السعادة؟
١١. ابحث عن السعادة، وانقل إلينا شعورك بوجودها، أو عدم وجودها لديك.  
وإذا وجدتها بين أين وجدت؟
١١. اكتب هذا الموضوع في بحث مستقل.